القسم الثالث:

«ثقافة التفاوض» كبديل لخطاب التسلط وكمفهوم محور للتعليم فى القرن القادم

لابد فى البداية أن أوضح ما أعنيه بتعبير «ثقافة التفاوض»، وذلك لأن التعبير لايزال يثير معانى متفاوتة فى واقعنا الثقافى، وحتى على مستوى تفاعلات النخبة. ومعظم هذه المعانى أو التفسيرات تخل بمعنى التعبير، وأود أن أتعرض هنا للتصورات القاصرة عن التعبير؛ فالبعض يتصور أن هذا التعبير «آداب الحوار» فقط، والبعض الثانى يتصور أنه كلام فى السياسة فقط، وهنا ينقض البعض ليصبغ المفهوم «بالميكيافيلية» والانتهازية، ومن ثم فإن المفهوم «بعيد عن قيمنا الإسلامية والعربية الأصلية»!! وينقض البعض الآخر ليشير أننا لانملك المصادر الكبيرة والقوة اللازمة للتفاوض فى عالم اليوم، ويقول: «تفاوض إيه واحنا بهذا الضعف ولم تكتمل قدرتنا» إذاً فالتعبير عندهم مجرد مصطلح «فضفاض» لا أكثر ولا أقل، وآخرون تصوروا أنه قطيع مع الماضى!. من هنا أجد أهمية مناقشة معانى التعبير على النحو الدقيق والمقصود به، ولكن أيضاً بهدف الحديث عن تطوير التعليم، وزرع مفاهيمه فى العملية التعليمية والإعلامية على وجه الخصوص، وذلك من منطلق أن عناصر «هذه الثقافة» وتوجهاتها هى السبيل لاحتواء ملامح ثقافة التسلط والتلقين والتصنيف المسبق والتعسف والتبسيط المطلق والمخل، وعديد من سلبيات تفاعلاتنا.. كذلك فهذه الثقافة هى اللازمة للانطلاق نحو آفاق المستقبل بعقلية عملية نقدية، تتعامل مع معطيات ومتغيرات هذا العصر المركبة، ومن هنا نشير إلى المستويات التالية للتعبير:

(١) «ثقافة التفاوض» لاتعنى «آداب الحوار» فقط:

فى أكثر من سياق أجد خلطاً كبيراً بين المفهومين سواء، على مستوى أساتذة بالجامعة أو فى سياقات أخرى، كان آخرها أن أحد المحررين بإحدى الصحف الكبرى قد شطب التعبير واستبدله بتعبير «آداب الحوار» حيث لاح وبشكل يقينى أن التعبير

مجّرد «فزلكة علمية» مصطلحات دون داعٍ، وهنا أوّد القول بأن «آداب الحوار» وقواعده الأساسية شئ لاغنى عنه فى عملية التفاوض الإيجابى، ولكن هذا يدخل فى إطار مايسميه خبراء علم اللغويات الاجتماعى Soeiolinguistics بالمبدأ التعاونى، وهذا المبدأ هو الذى احتل معظم اهتمامات الباحثين إلى أواخر الثمانينات فى هذا المجال.. ولكن جوهر عملية التفاوض يدخل فى باب آخر، يطلق عليه الخبراء تعبير «المبدأ التنازعى» (Adversative principle) ، وهو أقرب إلى مفهوم «لجدل»، والذى يتوقف أساساً على طبيعة المتحاورين.. فقد يكون من منطلق نفى الآخر والإساءة إليه، وهذا من ينطبق عليه قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ومن الناس من يجادل بغير علم..﴾ وقد يكون من منطلق الوصول إلى الأفضل دون الإساءة، وهذا ينطبق عليه قول الحق سبحانه وتعالى عن ﴿فجادلهم بالتى هى أحسن﴾، وفى الحالتين تتصارع أجندات المتحاورين ومراميهم الإقناعية؛ وهو الأمر الذى يستدعى الإلمام بتقنيات وأساليب واستراتيجيات التفاوض ومبارياته الحسابية، والتى تندرج أساساً تحت باب «المبدأ التنازعى» إلى أن يحقق طرف مافى أجندته، أو تصل الأطراف إلى نوع من المقايضة أو الاتفاق أو الحل الوسط أو إلى طريق مسدود.. كذلك تختلف مباريات التفاوض باختلاف نوع التفاوض.. ليس فقط من حيث كونه سياسياً أو اجتماعياً أو قانونياً أو تجارياً.. إلخ.. ولكن فى نوعه من حيث كونه تفاوضاً أو تساوماً إعادةً هيكلة للموقف برمته فى حالة التفاوض غير المتكافىء أو تفاوضى «تمديد» أو «تطبيع» أو «ابتكارى» أو «استكشافى» ، ولقد أوضحت هذه الأنواع بالأمثلة التوضيحية فى سياقات سابقة، منها مقال بعنوان «مصر ومعركة التفاوض مع صندوق النقد» (الأهرام ٩٤/٧/٢٨).

(٢) «ثقافة التفاوض» ليست كلاماً فى السياسة فقط:

نعم مفهوم «ثقافة التفاوض» لابد وأن يعنى تفاوضنا مع الأمم الأخرى سياسياً وفى كل المجالات بكل تأكيد.. ولكن ليس هذا هو الأمر فقط.. فإننى أرى أننا بحاجة ماسة وأكبر لتوظيف معطيات المفهوم فى سياقات تفاعلاتنا الداخلية، فهى سبيلنا إلى خلق روح العمل من خلال الفريق الواحد، وهو الأمر المفتقد إلى أبعد الحدود فى واقعنا. وثقافة التفاوض هى سبيلنا كذلك إلى الوصول الحثيث والعلمى إلى أرضية مشتركة، يتحقق من خلالها الكسب المتبادل ونبذ التناحر والعنف، وتجنب الحصول على المكاسب على حساب بعضنا البعض «دون تهاون أو ازدراء».. إذاً فالتفاوض الإيجابى هو منهج تفكير علمى، يجابه منهج تكفير متعسفاً، ويجابه تلك المناهج المبنية على إثارة المخاوف والشكوك دائماً وأساساً وترسيخ حالة من اليأس، والتنافر من الاضطراب، والتخندق خلف خطوط ومعسكرات حقيقية أحياناً ووهمية فى أغلب الأحيان.. فثقافة التفاوض هى إذاً ثقافة لابد وأن تختفى بممارستها مانراه على صحفنا من مقالات تكتب فى مساحات كبيرة، ونرى من خلالها مناورات كمناورات القتال الجوى.. فالكاتب أو التيار هذا يدور ويلف لينقض من أعلى على الكاتب أو التيار الآخر الفلانى، أكثر من الدخول فى لب قضايا بعينها بعيدة عن هذه المناورات القتالية، التى

أطلق عليها خبراء عالم اللغويات الاجتماعى تعبير «مطارحات القتال» الجوى «التناحرى» (Dog Fight Discourse)

لمزيد من التفاصيل، راجع كتاب مقدمة فى علم التفاوض الاجتماعى والسياسى لكاتب السطور ـ عالم المعرفة ١٩٩٤.

(٣) ،ثقافة التفاوض، تعنى البحث فى سيناريوهات المستقبل:

هناك مستوى آخر من المعانى يرتبط بالتعبير، «فثقافة التفاوض» تعنى الحاضر والمستقبل فهى ترسخ «المبدأ الديناميكى» فى التفاعل وهذا يستلزم إعداد وتوقيع سيناريوهات مستقبلية بخصوص القضايا الحيوية اللازمة لتقدمنا، وهذا لايعنى وضع سنياريوهات فقط وبشكل استاتيكى، كما يحدث أحياناً بل الأهم هو التمرس على هذا الأمر من باب اكتساب حسن التوقع والقدرة المرنة على الاستجابة الإيجابية والسريعة مع الأحداث لما فى صالح أجندتا الاستراتيجية، وهنا لابد وأن نرصد أهم مايتمخض عن هذه الثقافة من تعبيرات، لابد وأن تنتقل إلى واقع ممارستنا التعليمية وهى:

(Simulation) أى المحاكاة.. أى تصور دقيق لموقف ما من أجل التعامل الإيجابى والعلمى عند دوثه.. ووضع التصورات والبدائل له..("Alternatives","Imaging") ، وهنا نجد مثل هذه التعبيرات وغيرها من التعبيرات المماثلة الأخرى قد أصبحت شائعة فى واقع الممارسات التعليمية فى الدول المتقدمة، وهو الأمر الذى لابد وأن تأخذ به فى نظامنا التعليمى. ولمزيد من المراجع الهامة فى هذا الصدد، نشير إلى كتاب عقل المستقبل والذكاء الصناعى لكاتبه Geromc GLenn. (لدور النشر Acropolis Books، وكتاب بعنوان «التعليم للقرن الواحد والعشرين» لدور النشر Routledge ١٩٩٣ ولكاتبه Hedley Bease [٣٦] وهنا أتوقف لأعبر عن اندهاشى لسؤال سأله لى جيروم جلن صاحب كتاب «عقل المستقبل» فى زيارة لمصر، منذ فترة، حين قال: هل هناك تحفظ من وجهة النظر الإسلامية بخصوص الدراسات المستقبلية؟ وأضاف إن هذا هو مافهمه من البعض فى العالم الإسلامى حسب قوله، وكانت إجابتى سريعة بأن هناك فرقاً بين الإيمان بالغيب وأن مايأتى به المستقبل يقيناً هو من علم الله سبحانه وتعالى وحده ولكن الإسلام هو دين العمل والأخذ بالأسباب دائماً، وإلى أبعد الحدود والدراسات المستقبلية، ومحاولة استشراف وتوقع ماقد يحدث مستقبلاً، والاستعداد له من قبل الأخذ بالأسباب.. أما أن عقلية الوصايا المستلطة وعدم الأخذ بزمام المبادرات الإيجابية وانتظار ما يأتى به الآخرون والأحداث التى يعملون على توجيهها.. فكل هذا ليس من الإسلام بشىء.. خاصة فى عصر السرعة والتقدم العلمى المذهل، الذى أصبح يحكم جملة العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بالواقع المعاش، وله الكلمة العليا فى حياة الحضارات وانكماشها وموتها أيضاً..

(٤) ،ثقافة التفاوض، لاتعنى قطيعة مع الماضى بل ،التواصل إيجابياً معه

تصور البعض أن مفهوم «ثقافة التفاوض» يعنى ميكيافيلية الحاضر وإحداث قطيعة مع الماضى وهذا خطأ آخر فى فهم التعبير، وهنا لابد وأن نشير إلى أمرين مهمين أحدهما علمى بحت والثانى ثقافى أساساً.. فالأمر الأول هو أن أدبيات ثقافة التفاوض كثقافة مستقبلية، قد ورد بها عديد من المصطلحات، التى تؤكد على فكرة التواصل الإيجابى مع الماضى، وذلك بهدف رصد أنماط العلاقة وتطورها من الماضى للحاضر للمستقبل، وما الملامح التى اندثرت، وما الملامح التى لاتزال قائمة من المضى، ومستقبل تلك الملامح وشكلها فى عملية التفاعل وهذا يتمثل فى تعبيرات مثل "Trend" (الخاصية) وتعبير (primary Foreeast) وهو الخاص بالتنبؤ الأولى، الخاص بامتداد خاصية من الماضى للمستقبل Seeondary Fovecaat ، و«التنبؤ الثانوى» وهو يعنى بياناً عن أى احتمال مستقبلى، وتعبير "Tentiany Forccast" وهو الخاص ببيان عن شىء محتمل، أو أقل احتمالاً من حيث حدوثه فى المستقبل، مع أخذ كافة العوامل بعين الاعتبار بما فيها التدخل الإنسانى المتعمد؛ لتوجيه الأحداث ومحاولة التأثير فيها لصالح أجندة ما.

أما العامل الثقافى الخاص بموضوع التواصل الإيجابى مع الماضى، كأحد مستويات معانى تعبير «ثقافة التفاوض»، فهو ما أرجعه لمنطق خصوصيتنا الثقافية والعقائدية على وجه الخصوص؛ فهذه الخصوصية هى من مصادر قوتنا.. فهى من أهم مصادر التعبئة الإيجابية، وتعظيم مفهوم القدرة السلوكية التى تمكننا من التعامل مع صعاب الأمور، بل ورفض لليأس وللتخلف. ولعل واقع الممارسة التاريخية يوضح الأثر الإيجابى لهذه القوة التعبوية ولعلنا نتذكر تواصل جنودنا البواسل فى حرب رمضان أكتوبر ١٩٧٣، مع هتاف «الله أكبر»، وهو نفس الهتاف الذى حققنا به أعظم الانتصارات التاريخية، ولعلنا نتذكر موقف جمال عبد الناصر، وهو يخطب من فوق منبر الأزهر الشريف عام ١٩٥٦ ليستحضر كل قوى مقاومة العدوان على مصر، ولعلنا نستحضر مقولة السادات عقب انتصار رمضان أكتوبر «مهما حسبوها.. الكمبيوتر لايستطيع حساب إرادة الشعوب.. خصوصاً لما يكون شعب ٧٠٠٠ سنة حضارة»

ولذلك لاعجب أن مفاوض مثل هارى كيسنجر كان يبرز للمفاوض الفيتنامى وللصينى وللعربى مقولة أن التاريخ لايعيد نفسه؛ ربما ليقطعه من مصدر من أهم مصادر قوته.. لقد قال ذلك رداً على الجنرال الفيتنامى جياب، الذى قال إن مصير القوات الأمريكية فى فيتنام هو «ديان بيان بو..» وكان بذلك يشير إلى مصير القوات الفرنسية التى انهزمت فى ڤيتنام، وكان يقول دائماً إن التاريخ يعيد نفسه وسيعيد نفسه».. وهذا هو إحساس عميق للدول ذات الحضارات العريقة ذات التاريخ الطويل.. الخلاصة أن تعظيم الانتفاع بمستوى التواصل الإيجابى مع الماضى لهو من أعتى

الأسلحة التفاوضية، المعنوية التى نتزود من خلالها بطاقة الجلد والصمود وإرادة التحدى، وعدم قبول ما قد يفرض علينا وهو الأمر اللازم. إذاً لأى محاولات لإعادة صياغة هياكل تفاوضية قد لاتكون فى صالحنا. إذن إن هذا المستوى لمفهوم ثقافة التفاوض يساعدنا فى نوع من التفاوض، يطلق عليه الخبراء «تفاوض إعادة الهيكلة»"Redistrbutive Negotiation".

ولعلنا وفى ختام هذا العرض السريع «لثقافة التفاوض» من حيث التواصل الإيجابى مع الماضى، نلقى الضوء على أن النجاح الجماهيرى الباهر وغير المسبوق لمسلسل الفرسان (حتى فى كم الاحتفالات والجوائز لأبطال المسلسل) يكمن فى كم الإسقاطات التعبوية التى تخاطبت وتلامست مع قناعات تاريخية راسخة لدى ملايين المشاهدين فى مصر والعالم العربى الإسلامى، والتى تثق وتقر بحقيقة تاريخية مؤكدة بأن مصر هى قائدة العالم العربى والإسلامى، تنهض عبر التاريخ لتحيى العزائم بعد الهزائم وترد كيد المتعدين وتدحرهم، فإن جندها خير أجناد الأرض وهم فى رباط إلى يوم الدين..

والسؤال المطروح فى هذا السياق كيف تقدم حقائق التاريخ المدعمة لهويتنا بكل ما نملك من دقة، مع التأكيد على الدروس المستفادة لصالح الحاضر والمستقبل.. كيف تقدم الجوانب المختلفة للرؤى التاريخية لنتعلم منها، ولعلنا ونحن فى شهر يونيو أن نستحضر سؤالاً مهماً على سبيل المثال وهو كيف حدث ما حدث فى يونيو ١٩٦٧ ؟ ولماذا؟ والأهم هو كيف لايحدث ما حدث مرة أخرى؟ هل قضينا على أسباب ماحدث تماماً أم أن هناك ماينقصنا؟ وكيف السبيل لتغطية النقص؟ و ما إلى ذلك من أسئلة..

(٥) ثقافة التفاوض من المنظور التقنى البحت:

يبقى المستوى الأخير من معانى مفهوم «ثقافة التفاوض»، وهو منظور الإلمام العلمى المبنى على التدرب بتقنيات التفاعل المتعددة؛ خاصة أمر إقامة الحجج فى السياقات المختلفة، فهذا أمر يحتاج إلى وقت طويل لإتقانه، ويتطلب جهداً مماثلاً لإتقان مادة علمية أخرى كالرياضيات والطبيعة وغيره، وهو أمر يحتاج إلى زرعه فى العملية التعليمية، ولقد تناولته فى سياقات مختلفة، وأهمها فى كتاب مفصل بعنوان «**أزمة الخليج ولغة الحوار السياسى فى الوطن العربى، ١٩٩٢**؛ حيث أثبتت الدراسة فقدان هذه التقنيات ليس فقط على مستوى ما أثير فى الشارع العربى، ولكن على مستوى تفاعلات النخبة العربية أثناء الأزمة.. الأمر الذى لم يكن فى واقعه إلا ذروة للأزمة الثقافية والتعليمية، التى نعانى من آثارها اليوم، وهذا لايزال يمثل أهم الدروس المستفادة من أزمة الخليج ١٩٩٠ . ولعل من الطريف أن نلاحظ أن آخر ملفات الحوار

التى اتسمت بافتقادها الكبير لمفهوم إقامة الحجج بشكل علمى راسخ، هو ذلك الملف الذى تناول فيه عديد من أساتذة الجامعات موضوع تطوير التعليم والترقية بالجامعات أخيراً، وبشكل «قتالى» تناحرى ابتعد ـ فى حالات عديدة ـ عن تقنيات التفاعل العلمى الدقيق والإيجابى، وهو الأمر الذى يجعلنا نطرح مفهوم «ثقافة التفاوض» بمستويات معانيها الخمسة، التى ذكرناها وأهمها التقنى ليدرج فى شكل مادة تعليمية، تقدم على مراحل العملية التعليمية تتناسب وقضايانا، ولنبدأ بتدريب المعلم أولا ثم بتصميم المادة التعليمية الملائمة فى مراحل التعليم ثانياً. فهذا هو أحد السبل المهمة للدخول إلى القرن القادم بتعليم متقدم وبتفاعلات متقدمة، تليق بحضارتنا العريقة، وتمكننا من تعظيم فكرة العمل الجماعى اللازم للتنمية فى الداخل وإدارة الصراعات المركبة فى الخارج، والله ولى التوفيق.

ولعله من المهم أن ألقى الضوء فى نهاية هذه الدراسة على ملمح تقنى مهم وننتمى إلى أدوات ثقافة التفاوض الإيجابى التى ينبغى، وأن تكون البديل لهيمنة التسلط وأدواته.. وهذا الملمح يتعلق بعملية إقامة الحجج والإلمام بعناصرها العلمية وأوجه الخلل. ولعل من المهم أن أرصد هنا جزءاً صغيراً مما ورد فى الفصل الخامس من كتابى بعنوان أزمة الخليج ولغة الحوار السياسى فى الوطن العربى (٣٠٠ صفحة)(٣٧).

حيث أقدم فى ذلك الفصل دراسة للملامح العلمية لإقامة وتفنيد الحجج من منظور لغويات التفاوض، ويتبع ذلك أمثلة توضيحية من تفاعلات الأزمة وما أعقبها تجسد الأنماط التفاعلية السلبية، التى تمثل انتهاكاً أو خللاً للقواعد العلمية لإقامة وتفنيد الحجج. ولقد تناولنا فى ذلك الفصل النقاط التالية:

اختار الباحث دراسة ملامح وأساليب إقامة الحجج Argument feature كإحدى الأدوات التحليلية، التى تندرج تحت إطار منظور لغويات التفاوض والملائمة لدراسة تفاعلات النخبة حول أزمة الخليج للأسباب التالية:

أولاً: علاقة دراسة الملامح العلمية لإقامة وتفنيد الحجج من منظور لغويات التفاوض بدراسة بنية وتضاريس العقل العربى:

(أ) إن هناك قدراً ضخماً من التفاعلات حول الأزمة من قبل النخبة، يتمثل فى دحض وتفنيد الحجج المختلفة التى أثارتها تفاعلات أطراف أزمة الخليج إلى الحد، الذى دفع عدد كبير من أعضاء النخبة إلى أن يتعامل مع تقنيات إقامة الحجج فى كتاباتهم، ولكن بالحدس والمنطق البديهى. ولقد انعكس ذلك فى تكرار ضخم لتعبيرات بل وعناوين نسوق هنا بعضها على سبيل المثال، انظر الحجج الأردنية (لسلامة أحمد سلامة ١٩٩٠/٩/١٧) «الحجج العراقية» أو أكاذيب صدام الادرنية (د. اسماعيل صبرى ١٩٩٠/٨/٢٠) و«خلط الأوراق» (سعيد سنبل) ١٩٩١/١/٢٩، «لماذا الخلط بين المسلمات الشرعية والقضايا الجدلية» (لزكريا نيل ١٩٩٠/٩/٨) «هل صدام هو

الذى ربط الغرب بإسرائيل» (د. عبد الوهاب المسيرى ١٩٩١/١/٢٩) وكل هذه المقالات توضح الطبيعة الجدلية التى صاحبت الأزمة الأمر، الذى يدعو إلى دراسة ملامح الحجج لتوضيح معالم إقامة وتفنيد الحجج على نحو علمى.

(ب) إن دراسة ملامح الحجج لأعضاء النخبة العربية ليمثل أكثر الطرق العلمية ملاءمة للإجابة عن بعض الأسئلة الرئيسية لتحليل مضمون الفكر العربى حول أزمة الخليج والتى تهدف إلى استكشاف «الخلل فى بنية العقل العربى ومقولات الفكر العربى التى أفرزها، شكلاً ومضموناً، ومحاولة تبين ملامح الشخصية العربية والسلوك العربى النخبوى والشعبى على السواء. فدراسة ملامح الحجج تقدم لنا صورة لأساليب التفكير من قبل النخبة (Reasoning styles) ، وكذلك توضح بطبيعتها حجم أو قدر «الخلل» فى عملية إقامة الحجج "Fsllacies" واتساقها فى سياق مقولة أو مقولات معينة لكاتب أو متحاور ما.

(جـ) إن إقامة الحجج والهدف من إقامة حجة ما فى سياق جدلى كسياق الأزمة يمثل محاولة الكاتب أو المتحدث أن يستقطب الآخرين لوجهة نظره، وكذلك هى محاولة لصياغة الرأى العام أو تشجيع صانع القرار أو الرأى العام أو الإثنين معاً نحو اتجاه ما. ومن ثم فإن عملية تحليل ملامح الحجج تساعد على تعرف الأساليب المختلفة الخاصة لصياغة الرأى العام، أو تشجيع صانع القرار أو الرأى العام أو الاثنين معاً نحو اتجاه ما. وهذا موضع دراسة تفصيلة قادمة لكاتب هذه السطور.

يقسم علماء اللغويات الاجتماعية المطارحات "Discourse" إلى أربعة أنواع رئيسية من حيث أساليب التناول، وهى:

ثانياً: مدخل عام للمفاهيم الخاصة بتحليل عناصر إقامة الحجة وتفنيد الحجج:

- المفاهيم: ما الحجة؟ وما عناصرها؟

(أ) السرد (Narration): وتتمثل فى سرد أحداث بترتيب متتالٍ من نقطة إلى أخرى، وتكون نية الكاتب الأساسية هنا هى إخبار القارئ بما حدث.

(ب) الوصف Description: وهو محاولة الكاتب ترك انطباع ما لدى القارئ تجاه شىء ما أو شخص ما أو مكان ما، وبالتالى فأسلوب التناول هنا يتضمن إخبار القارئ أو المستمع بتفاصيل مايحدث به بطريقة إما ذاتية Subjective أو موضوعية Objective.

(جـ) الشرح والتحليل Exposition: وهو محاولة شرح مفهوم ما أو تحديد تعريفه أو شرح عملية ذات طابع ذهنى أو فيزيقى، وكذلك محاولة التعريف بالفرق بين شيئين، أو شخصين أو مؤسستين، وأوجه التشابه أو الاختلاف بينهما.

(د) الحجج Argumentation: ويختلف أسلوب التناول هنا عن الأنواع الثلاثة المذكورة. فبينما تتداخل هذه التصنيفات بطبيعة الحال إلا أن الحجة تكون واضحة ومتميزة عندما يحاول الكاتب طرح مقولة يحاول أن يظهر تفوقها على مقولات أخرى، ويحاول فى الوقت نفسه إقناع الآخرين بها، فى محاولة منه لتغيير نظرتهم لموضوع ما يكون محل جدل. وبمعنى آخر إذا كان الهدف من الثلاثة أنواع الأولى هو عرض مجموعة من الاختيارات.. فإن الحجة تهدف إلى حث المتلقى لها على تبنى اختيار واحد فقط.

وتتكون الحجة من ثلاثة عناصر رئيسية، وثلاثة عناصر فرعية. وهذه العناصر هى:

(أ) «لب المقولة الرئيسية أو الادعاء» "Claim" ويعبر هذا العنصر عن الموقف الرئيسى، الذى يتخذه كاتب أو متحدث ما فى سياق جدلى. وأحياناً أخرى تسمى المقولة الرئيسية «بالخلاصة» "Conclusion" ، ويرتبط «بالمقولة الرئيسية» عنصر الدحض أو التفنيد المسبق "Rebuttal". وهذا العنصر يتجسد فى كافة التعبيرات أو المقولات، التى توضح حرص الكاتب على أن تتضمن مقولته الرئيسية العناصر التى تدحض مقدماً هجوم أو اعتراضات متوقعة من قبل الآخرين على «مقولته الرئيسية». وهذا العنصر يستخدم فى المقالات ذات الدقة العالية، والتى تتسم بالمنهج العلمى والموضوعى.

(ب) «الأرضية التى تستند إليها المقولة الرئيسية» (Grounds) ويسميها البعض الآخر من علماء اللغويات «البيانات» Data ، ومن شأن هذا المكون أن يدعم المقولة الرئيسية «أو الادعاء». والإتيان الجيد بهذا العنصر فى مقولة الكاتب بمثابة قوله (نعم هناك مايدعم المقولة الرئيسية أو الادعاء» فى حجتى بخصوص الأمر».

وهناك ثلاثة أنواع من «البيانات» أو «الأرضيات» التى تدعم «المقولة الرئيسية»، وهى:

ـ الدليل (Evidence) مثل الإحصائيات.

ـ القيم (Values) دعم المقولة من منطلق أمثلة ذات قيمة اجتماعية أو دينية متفق عليها.

ـ المعقولية (Credibiliy) دعم المقولة بالاستشهاد بمقولات أشخاص، أو مصادر لها معقوليتها.

(جـ) «عنصر الاتساق والربط» بين «البيانات» Data والمقولة الرئيسية Claim ، وهو ما يسمى بالـ (Warrant).

ولقد أطلق خبراء اللغويات الاجتماعية كلمة Warrant على هذا العنصر من الحجة لأنه بمثابة إعطاء «رخصة» أو «تصريح» للقفزة العقلية (Mental Leap) من الإدعاء للبيانات والعكس.

وقد يتم حذف «عنصر الاتساق والربط» Warrant من الحجة، أو يترك لاستنتاج المتلقى (القارئ أو المستمع)، وهنا نتوقف على نوع الجمهور المتلقى للحجة إذاً فهذا العنصر هو الذى يكشف إلى أبعد حد عن رؤية الكاتب أو المتحدث «للقارئ أو المستمع.. من حيث تقبلهم» «للمقولة الرئيسية»، التى يطرحها أو تحفزهم بالاعتراض على تلك المقولة. إذاً فحذف هذا العنصر من الحجة من قبل الكاتب يدل على شعوره بالزمان مع المتلقين لمقولته الرئيسية، ومشاركتهم الرأى فيما يتعلق بها كمن يتحدث إلى أعضاء فى حزب واحد. ويعتبر وجود هذا المكون ضرورياً جداً فى حالة السياقات الجدالية، وفى حالة التعامل مع جمهور لايتفق أساساً مع المقولة الرئيسية المطروحة فى حجة جدالية ما. وكذلك يرتبط بهذا المكون الرئيسى عنصر فرعى آخر، وهو عنصر «التدعيم» (Backing) أى لتدعيم عنصر «الاتساق والربط» (Warrant)، ويستخدم إذا دعت الحاجة إلى ذلك حسب سياق الموضوع ومعطياته وطبيعة الجمهور، الذى يتحدث له الكاتب فى المقام الأول.

أما العنصر الفرعى الآخير للحجة فهو «العنصر الذى يعكس مدى قوة موقف الكاتب من القضية المطروحة.. أى حجم ميله وتحيزه لموقف ما، وهذا ما سمى بـ «بعنصر شدة التعبير» أو (qualifier) ، وهذا العنصر يهدف لقياس مدى الانفعالية، التى تظهر من معنى المقال أو بمعنى آخر حجم التحيز لعاطفة ما، وبالتالى فإن هذا العنصر يمكن تسميته بمقياس درجة التحيز. وهذا العنصر يتمثل فى ورود عبارات، مثل: «مما لاشك فيه أن موقف «هو الموقف الصحيح تماماً الذى يجب أن نتبناه»، وهو مايعبر عن الانحياز غير المتحفظ لموقف ما. وفى بعض الحالات قد يسبب موقف الانحياز التام أن يستخدم كاتب ما تعبيرات التهديد والوعيد والإهانة لمن يخالفه. وهذا الأمر يمثل خللاً واضحاً فى إقامة الحجج. أما المستوى الأصوب فهو الطرح الموضوعى، الذى يكشف عن موضوعية الكاتب وعادة مايصاحب ذلك الطرح تعبيرات وأساليب، تجعل هناك مسافة بين الحدث وتفسيره؛ بحيث يستطيع القارئ أو المتلقى الحصول على تقييم موضوعى وعادة مايتمثل هذا الأسلوب فى تعبيرات، مثل: «هناك عدة احتمالات نرى أهمية تعرف معطيات كل منها» أو «من المحتمل» أو «من الجائز».. إلخ. والخلاصة هى عدم استخدام أى من هذه التعبيرات، التى توحى باحتكار الحقيقة وتقرير الأمور بحدة وذاتية فى سياق حدث أو موضوع هو جدالى بطبيعته.

الخلل فى الحجج (FALLACIES)

ـ هناك عدة أمثلة تعكس وجود خلل فى بناء الحجة، ولقد استعان خبراء علم اللغويات الاجتماعى بتعبيرات من علم المنطق (Formal Logic)، واستخدموها للتدليل على وجود انتهاكات للقواعد السليمة لبناء الحجج، أو ما أسموه بنقاط الخلل أو (Fallacies)، وهى كالآتى:

الخلل الناتج عن استخدام عنصر «الربط والاتساق» (Warrant) Fallacies of warrants

ويندرج تحت هذا النوع من الخلل الأنماط التالية:

ـ «هذا الأمر ليس بالشرط نتيجة لذلك» (Non Sequitur)

أو كما يقال بالإنجليزية (Itdoes mpt follow)، ويرتبط هذا النوع من الخلل بنمط آخر، يرمى إلى «التهييج العاطفى المتعمد»؛ حين يستخدم الكاتب أو المتحدث سلاح إثارة مشاعر البسطاء إلى الحد، الذى تغطى فيه المشاعر الملتهبة على أى منطق.

ـ التعميم المتسرع (Hasty generlization).

ـ التبسيط الزائد العلاقة السبب وأثره (Cause & Effect).

ـ استخدام دليل مبنى على «شخصية أو مصادر ليس لها معقوليتها، لدى المتلقين».

ـ الخلل الناتج عن استخدام «عنصر الدحض والتنفيذ المسبق» (Rebuttal) ، وقياس موقف الكاتب (qualifier).

ويتجسد هذا الخلل فى عدم حرص الكاتب على تجنب الوقوع فى خطأ إتاحة كثير من الاعتراضات والنقد المتوقع لمقولته، وإخفاقه فى حماية حدود حجته، من خلال وعيه الكامل بالموقف وردود الأفعال المحتملة وقطع الطريق عليها. وكذلك يتجسد الخلل فى اندفاعه نحو تبنى موقف بصورة إطلاقية، لاتعطى الانطباع بالموضوعية.

ـ الخلل الذى قد ينتج عند تقديم الكاتب «لمقولته الرئيسية»، ويتجسد فى الأنماط التالية:

ـ «الإثبات من خلال التكرار» أو «الدوران فى حلقة دائرية»، فبدلاً عن تقديم دليل واضح لدعم المقولة الرئيسية، تقدم المقولة الرئيسية على كونها الإثبات ذاته من خلال كلمات مرادفة وتكرار فقط.

ـ «تجاهل السؤال الذى تطرحه قضية ما (Ignonring the qusetion) : والمقصود بذلك هو إخفاق طرف من الأطراف فى استيعاب وتحديد ماهو السؤال الرئيسى، الذى تطرحه قضية ما إما عمداً أو سهواً، والتعامل مع أسئلة فرعية.

ـ «نقل عبء الإثبات على الآخرين» shifting the burden.

أى نقل عبء إثبات المقولة الرئيسية فى الحجة على الآخرين، أى كما فى القول «لقد تمكنت قواتنا من إسقاط خمسين طائرة للعدو، ونتحدى كل هؤلاء الذين يزعمون أن طائراتهم قد عادت سالمة. أو كما فى قول أحد المسئولين: «أن الإجابة عن هذا التساؤل قد أجاب عنها سيادة الرئيس منذ فترة طويلة ـ وعلى المستمع أو المتلقى البحث عن هذه الإجابة فى خضم تصريحات عديدة!

ـ خلل الإيحاءات الناتجة من ثنائية المعانى Equivocation.

ويتجسد الخلل هنا إذا ما بنيت حجة ما على معنى مفهوم واحد، يحتمل وجود معنيين واضحين له، وأخذ على كونه يعنى معنى واحداً فقط، دون النظر إلى احتمال قصد المعنى الآخر، كما سنوضح فى تحليل العينات فى الجزء الثانى من هذا الفصل.

ـ الخلل الناتج عن التشهير بشخص ما دون التعامل الموضوعى مع ما يطرحه من مواقف أو مقولات.

ثالثاً: أنماط أخرى تجسد خطايا الحوار وتحليل لأوجه الخلل فى إقامة وتفنيد الحجج:

حوارات الحجج الأفقية "parataxis"

هناك نوعان رئيسيان من أساليب إقامة الحجج: الأول هو مايسمى بالحجة الأفقية أى بتكرار العبارات بهدف التعبئة، وهذا يأتى عادة فى المواقف الحماسية واللحظات الدرامية، وهى الأشهر استخداماً فى أساليب الإقناع، التى تستخدم فى التفاعلات العربية، إلا أنها ذات صبغة عالمية أيضاً فلقد استخدمها تشرشل فى خطاب الحرب ضد الألمان.

أما الحجة الرأسية أو (SyIIogism) فهى تتسم بتسليط الضوء على المقولة الرئيسية للطرح المكتوب أو المسموع فى بداية الطرح، وما يأتى بعد ذلك يكون بمثابة تركيز ودعم للنقطة الرئيسية، من خلال أدلة كالتى أشرنا إليها فى الجزء الأول من هذا الفصل. وتتسم هذه النوعية من إقامة الحجج بخلوها من التكرار كأسلوب للإقناع.. أى عكس الحجة الأفقية، التى تتسم بالتكرار. واستخدام الموسيقى اللغوية يختلف من ثقافة إلى ثقافة ومن فرد إلى آخر، ولكن للموسيقى اللغوية وقعاً خاصاً لدى المستمع العربى، كما نلاحظ ذلك جميعاً وعلى مستوى النخبة والعامة.. انظر إلى عناوين المقالات والأبحاث الحديثة جداً عن الأزمة لتجد الآتى «حرب الكلمات وكلمات الحرب» لمراد الدسوقى الأهرام ١٩٩٠/١١/١٦ و«إعلام الأزمة وأزمة الإعلام» (سيف الدين عبد الفتاح) «بحث فى ندوة حتى لاتنشب حرب غربية جديدة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ديسمبر ١٩٩١).. خطاب الأزمة وأزمة الخطاب (للسيد يسن ١٩٨٦) «وحرب اللاحرب للطفى الخولى ١٩٩٠/١٢/٢٧» وانكسار الثورة وانتصار الثروة «لكاتب عربى آخر.». إن أمر استخدام لغة المؤثرات الموسيقية فى تفاعلات النخبة له جذور ضاربة فى تاريخ الكتابة الموسيقية العربية. على سبيل المثال لا الحصر، تتأصل

الموسيقى فى عناوين قديمة لابن خلدون مثل: «الشفاء السائل فى تهذيب المسائل». وأمر الموسيقى فى اللغة أمر بديع بلا شك، خاصة إذا انسجمت الموسيقى مع أسلوب التفكير والموضوعية، ولكن خطورة هذا الأمر تكمن فقط فى هؤلاء خاصة إذا كانوا من السياسيين مثل صدام حسين، الذين يكون شاغلهم الأكبر هو الموسيقى اللغوية فيبدأون تناول فكرة لمجرد الموسيقى أساساً؛ أى موسيقى الكلام وليس لمجرد تناول كافة أبعاد الفكرة بأسلوب علمى وبعقلية السياسى المحنك.

لقد تناول سرد التفاصيل المتعلقة بهذين النوعين الرئيسيين لإقامة الحجج بعض الباحثين من علم اللغويات الاجتماعية، مثل: باربرا كوش وبربارا جونستون John-stone؛ حيث قامت هذه الباحثة بتحليل عينات من كتابات بعض الأدباء العرب مثل طه حسين على وجه الخصوص، وكذلك كتابات الإنشاء للطلاب العرب، الذين يدرسون الإنجليزية، وذهبت للقول بأن الحجة الأفقية هى خاصية من خصائص اللغة العربية، وهى وسيلة الإقناع التى ينتهجها المتحاورون العرب، وأن الحجة الرأسية هى فى واقعها تمثل النمط الغربى فى عملية إقامة الحجج، وهو ما عرف بالنمط الأرسطوطى (السولوجيزمى) Syllogism، ولقد فند كاتب السطور هذه المقولات بشئ من التفصيل فى سياق آخر. ولكن ما أود أن أسلط الضوء عليه هنا هو أن كلاً من نوعى الحجة الأفقية والحجة الرأسية لهما جذورهما فى الفكر العربى قديمه وحديثه، وأن ذهاب بعض الباحثين إلى قصر الحجة الأفقية على العرب على كونها طريقتهم فى الإقناع (على أساس أن ذلك من خصائص اللغة العربية من منطلق تأييدهم لفكرة أن اللغة هى التى تحدد الأنماط الفكرية لمجموعة ثقافية) ما هو إلا نوعاً من التبسيط الزائد، الذى ينقصه الدقة العلمية؛ فلقد ثبت أن كلاً من الفكر واللغة يتداخلان، وأن الفكر قد يؤثر على استخدام اللغة أو العكس والأمر منوط بعوامل متعددة، أكثر تعقيداً بالفرد ذاته وتكوينه وتعليمه ومدركاته..

ولكن الحقيقة التى لاشك فيها أننى قد توصلت إليها من خلال تحليل كم هائل من البيانات المتعلقة بالأزمة وغير سياقات الأزمة، تشير إلى شيوع الحجة الأفقية كنمط إقناع رئيسى ولكن ليس مرجع الأمر لطبيعة اللغة العربية، كما وصفه بعض الباحثين الغربيين؛ بل إنه يرجع أساساً لفقدان اختيارات أدوات الحوار المناسبة، وهو أمر يتعلق بفراغ فى البنية التعليمية فى الوطن العربى، وكذلك غياب الديمقراطية، حيث يسود استخدام الحجة الأفقية بغرض التعبئة أساساً وبغرض قمع شيوع التفكير المنطقى فى أحيان كثيرة. إن شيوع إساءة استخدام الحجج الأفقية فى سياقات الحوار، التى لايتطلب السياق استخدامها ربما يكون هو السبب الذى دفع باحث مثل جون لافين

John Laffin إلى أن يقول «إن علينا عندما نتعامل أو نتحدث مع العربى بالصبر، علينا أن نستمع، وعقب أن ينتهى من كلامه علينا أن نعيد تركيب ماقاله؛ لنستطيع أن نفهم ماذا قال. ورغم أن هذه المقولة بها ما بها من تعميم غير جائز علمياً إلا أنه مع الأسف هناك وجود لعدد كبير من المقولات التى تنطبق عليها مقولات لافين. لقد اتسم الخطاب العراقى الرسمى بشيوع وإساءة استخدام كل خصائص الحجة الأفقية؛ حيث لايصعب على المراقب أن يجدكماً هائلاً من الإطناب والتكرار اللاموضوعى؛ والاعتماد على موسيقى اللغة أساساً دون التعمق الكافى فى سياقات مايحدث مع التركيز العالى على النغمة الانفعالية، والقفز من موضوع إلى موضوع دون ترابط منطقى يعالج السبب وأثره، الأمر الذى جسد بدوره النمط التالى فى تفاعلاتنا:

حوارات «خلط الأوراق»

لاشك أن هذا التعبير «خلط الأوراق» كان من أكثر تعبيرات تفاعلات الأزمة شيوعاً وكان قبل الأزمة ولايزال من بعدها من الأنماط السلبية فى تفاعلاتنا والإشكالية، من ناحية تناول الأمر علمياً هنا أن يقوم أحد المتحاورين باختيار لب مقولته الرئيسية أو «الادعاء» "Claim"، دون النظر إلى السياق الأشمل لهذه المقولة، وبالتالى يفتقد اختيار «الادعاء القوى ويفتقد كذلك تقديم» التنفيذ المنطقى أو المسبق لما قد يتوقعه من هجوم "Rebuttal" ، وبالتالى تتسم حجته بالخلل؛ حيث يفتقد الكاتب الذى تخلو حجته من عنصر الدحض والتفنيد المسبق لمعالجة السبب وأثره، وبالتالى تكون حجته نوعاً من التبسيط الزائد للأمور.

ولقد تجسد نمط خلط الأوراق، والذى صاحبه أنماط «التأطير والمؤامراة» فى تصارع عدة مقولات رئيسية تتجاهل السياق الأشمل والترتيبى للأحداث، وهى:

(١) خلط قضية غزو الكويت بقضية وجود القوات الأجنبية على الأراضى المقدسة.

(٢) خلط قضية العدوان على الكويت بالعدوان على فلسطين. وفى بعض الأحيان الأخرى خلط قضية العدوان على الكويت بقضية تحرير فلسطين.

أما فيما يتعلق بالنقطة الأولى نستعرض من بيانات «تصارع الحجج» مقالتين الأولى لسعيد سنبل، والثانية للأستاذة خالد محمد خالد. وهنا ننظر إلى نص المقالة الثانية للأستاذ خالد محمد خالد، والذى اتسم بحدة الاصطدام والمباشرة مع هؤلاء الذين يخلطون أوراق قضية غزو الكويت بقضية وجود القوات الأجنبية على الأراضى المقدسة، ويتجاهلون السبب الرئيسى فى وجود القوات الأجنبية وكان هذا المقال بعنوان «ليست المشكلة فى وجود القوات الدولية، بل الكارثة فى غيابها» (الأخبار ١٢/٨/١٩٩٠) وفيما يلى هذا الجزء من المقال:

ليست المشكلة فى وجود القوات الدولية بل الكارثة فى غيابها

كنت أستطيع أن أختار لهذا المقال عنواناً أكثر دبلوماسية، ولاينقصه التنكر وراء واحد من الأقنعة، التى تغطى اليوم وجوه الذين يخفون فى أنفسهم ما الله مبديه..

كنت أستطيع ذلك، حتى أقطع ـ على الأقل ـ الطريق على المهرجين والمشعوذين الذين سينادون حمقاهم قائلين:

انظروا.. هاهو ذا يرحب بالاستعمار الأجنبى!! وهاهو ذا لايرى بأساً فى جيوش الكفر التى زحفت على بلادنا.. بل يرى الكارثة ماثلة فيما لو أنهم تقاعدوا عن المجىء..!!

أجل كنت أستطيع.. ولكن ماذا سيكون الفارق بينى وبينهم آنئذ؟؟

كان الكذابون والمضللون سيزيدون بى واحداً. يضاف إليهم ويأخذ مكانه الهابط بينهم.. وكنت سأكون هارباً جديداً من مواجهة الحقيقة. ومناصرة الحق!

ومن أجل ذلك اخترت الرضوخ للصدق يارجال.. آثرت القول بأن الكارثة ليست فى وجود القوات الدولية ـ وعلى رأسها أمريكا ـ بل الكارثة فى غيابها عن الميدان!!

ودعونى بادىء ذى بدء أرسل التحية مضاعفة لأولئك الجنود البواسل، الذين يواجهون خطر الموت فى أقسى صوره وأشرها نذالة ونكراً..!!

أما بخصوص خلط قضية العدوان على الكويت بالعدوان على فلسطين.. فنستشهد بمقال الاستاذ سلامة أحمد سلامة بعنوان «حجج أردنية» حيث يتناول الحجج الأردنية كما جاءت على لسان المسئولين بالأردن فى ندوة قدمتها إحدى شبكات الإذاعة الأمريكية. وفيما يلى نص المقال:

فى ندوة قدمتها إحدى شبكات الإذاعة الأمريكية، سئل رئيس تحرير إحدى الصحف الأردنية عن الجانب الذى تؤيده صحفيته فى النزاع الناشب فى منطقة الخليج.. مع الكويت أم مع العراق؟

حجج أردنية

وكانت إجابة الصحفى الأردنى بالغة الغرابة.. فقد أكد أن الأغلبية الكبرى من الرأى العام فى الأردن تؤيد العراق وتقف إلى جانبه.. لأن العالم العربى سئم استمرار الظلم الواقع عليه، وضاق بانحياز أمريكا الواضح لإسرائيل، ولم يسترح كثيراً للحماس والسرعة والاندفاع الذى أبدته أمريكا، وهى تسعى إلى تنفيذ قرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة ضد العراق.. فترسل الأساطيل والجيوش والطائرات، بينما تقف موقف عدم الاكتراث والتهاون من نفس القرارات التى أصدرها مجلس الأمن ضد إسرائيل منذ عشرات السنين.. مع أن الاحتلال هو الاحتلال والضم هو الضم.. أما وجه الغرابة فى

هذه الحجج التى نسمع شيئاً قريباً منها فى بعض الدوائر الحزبية فى مصر، فهى أنها لم توضح نوع العلاقة، التى تربط بين العدوان على الكويت والعدوان على فلسطين، ولم تجب عن السؤال الملح وهو: وماذنب الكويت فى كل هذا؟ ولابد أن نعترف بأن هذه الحجج التى تساق بشكل أو بآخر على ألسنة المسئولين وغير المسئولين فى الدول العربية، التى اتخذت موقفاً متخاذلاً من إدانة الغزو العراقى للكويت، قد تلقى هوى فى نفوس قطاعات واسعة من عامة الناس فى بعض أنحاء العالم العربى، تعانى من مرارة الإهمال والقمع والفقر، وتختلط عليها المفاهيم.. فلا نفرق بين استيلاء حاكم عربى على دولة عربية مجاورة شقيقة، مدفوعاً بعوامل الجشع والطمع وأحلام العظمة، و اغتصاب اسرائيل لحقوق الشعب الفلسطينى، مدعومة بقوى عالمية كبرى وفى ظل صراعات تاريخية وحضارية بين قوميتين، لايتحكم فيها فرد واحد أو دولة واحدة.

غير أن خطورة مثل هذه الحجج التى تبرر فى الوعى الشعبى العام استيلاء دولة عربية على دول عربية أخرى، هى أنها تبرر فى الوقت نفسه استيلاء إسرائيل على فلسطين، وتجعل العجز عن مقاومة الغصب الإسرائيلى مبرراً للاستسلام لكل أشكال الغصب والعدوان.

وحين قال الشاعر العربى القديم وظلم ذوى القربى أشد مرارة.. فقد كان يعنى بذلك، أن الذى لايجزع ولايضيق بظلم ذوى قرباه، لن يكون أكثر جزعاً وضيقاً بظلم الآخرين له.. لأنه سوف يفقد القدرة على مقاومة الظلم.. وقد بلغت شعوب عربية كثيرة مرحلة العجز عن مقاومة الظلم الداخلى، فكيف يتسنى لها أن تقاوم الظلم الخارجى؟ وخير مثال لذلك مايحدث لشعب العراق نفسه.

سلامة أحمد سلامة

(الأهرام ١٧ / ٩/ ١٩٩٠)

حوارات «سلطة النص»

لاحظ عديد من خبراء علم اللغويات والاجتماع والأدب والفلسفة على مستوى العالم العربى أن الثقافة العربية هى ثقافة «نصية» (سيزا قاسم وحسن حنفى ونصر أبو زيد). أما على مستوى الباحثين من غير العرب.. فقد لاحظ شيف Chafe وتنين Tannen وغيرهم أن الثقافتين الإيرانية والتركية هما أيضاً ثقافات «نصية»، والمقصود بتعبير الثقافة النصية هو أن يكون هناك نص رئيسى هو «النص الأم»، المولد لاحصر له من الظواهر النصية، كما ذهبت إلى ذلك سيزا قاسم. ومن واقع الثقافة العربية نجد أن القرآن الكريم هو ذلك النص المحورى الأساسى، الذى يمثل «سلطة توجيه وتقنين وتشريع»، كما ذهب إلى ذلك حسن حنفى، الذى يقول فى هذا الصدد: «إن النص

يظهر كسلطة فى النصوص الدينية أكثر منه فى النصوص الأدبية أو التاريخية أو القانونية. وتقتضى النصوص الدينية والقانونية الطاعة، أكثر مما تقتضيه النصوص التاريخية والأدبية بطبيعة الحال، ولذلك تستعمل النصوص كشواهد فى الخطاب فى المجتمعات النصية، التى لايزال يمثل فيها سلطة:(٣٨)

وبتحليل تفاعلاتنا الاجتماعية اليومية.. نجد عشرات الأمثلة التى تجسد نمط «سوء استخدام سلطة النص»؛ حيث يتجسد ذلك فى هذا الكم الكبير من شركات توظيف الأموال، التى انتهزت فرصة تأثير سلطة النص القرآنى على جموع المودعين وأساءت استخدام هذه السلطة، بما قامت به من عمليات نصب وسرقة وهروب رؤسائها من البلاد، كما ثبت ذلك فى عديد من التحقيقات. ولم تكن تفاعلات الأزمة التى جسدت نمط «سوء استخدام سلطة النص» جديدة على الواقع العربى، فلقد استحضر الخطاب الرسمى العراقى كماً ضخماً من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وإلى الحد الذى جعل صدام حسن، يؤكد على الانتساب إلى الدوحة المحمدية القريشية، وأن الله سبحانه وتعالى قد جعله منوطاً بأداء دور قيادى خاصاً لمحاربة الفساد وإقرار العدل، ومن هنا استحضر شعارات الجهاد والدفاع عن المقدسات ومنازلة الحق.. «وليخسا الخاسئون»، ذلك التعبير الذى لازم نهاية أى بيان من البيانات العسكرية، وغير العسكرية التى وردت بالخطاب الرسمى العراقى. ولقد استمر الخطاب العراقى على هذا النحو، حتى عندما بدأ النظام يفكر فى الانسحاب؛ فلم يجعل المفاوض العراقى القرار على أنه قد جاء من شخص الرئيس صدام، بل إنه جاء من خلال قصة أوردها الرئيس العراقى عن «الحلم الذى يظهر فيه النبى صلى الله عليه وسلم لصدام حسين ليخبره بأن صواريخه غير موجهة إلى المكان الصحيح. وكان هذا متضمناً فى منشورات وزعتها القيادة العراقية على أفراد القوات فى العراقى والكويت، الأمر الذى تم تفسيره حينذاك على أنه نوع من التمهيد النفسى لاحتمال انسحاب العراق من الكويت (برغبته).

ولكن الذى يلفت النظر بصورة أكبر هو كيف أن هذه الجماهير قد خدعت بإساءة استخدام سلطة النص، وبأكذوبة الجهاد الإسلامى ومنازلة الكفار التى رفعها صدام حسين، وبعدم جواز الاستعانة بهم من قبل المسلمين. إن هذه الظاهرة لاتزال بحاجة إلى دراسة أخرى؛ فالأمر الذى شاع بين جماهير الشارع العربى والإسلامى حينذاك إن ماضى صدام العلمانى وجرائمه ليست شرطاً فى إثبات أنه لايجسد صورة البطل الذى يدافع عن الحق وينازل الباطل، وأنه مسلم مؤمن حقاً. ودليلهم هو ماكان يتخذه من مواقف أثناء تفاعلات الأزمة إلى الحد الذى شبه به فى إيران على وجه الخصوص بأنه «خالد بن الوليد»، الذى كان من المشركين، وأصبح سيف الله المسلول، ويقول الكثيرون..

إنه تاب فلما لانصدقه وأنه من المنافى لتعاليم الإسلام أن تكذب مايقوله أحد؛ خاصة بشأن التوبة، فالله وحده هو الأعلم بالسرائر. الأمر الذى لايختلف عليه أى مسلم. ويذهب البعض الآخر إلى أنه حتى إذا كان صدام جائراً وظالماً وليس «بخالد ابن الوليد»، فشره أهون من الكفار الذين جاءوا إلى الأراضى العربية، وبالتالى وجب الجهاد ضدهم. ونقد الأستاذ فهمى هويدى فى مقاله «خطاب فى الكفر والظلم بتاريخ ١٩٩١/١١/٢٣» هذين المفهومين (الكفر والظلم) من الناحية الإسلامية. إن ما نخلص إليه هو أن إساءة استخدام سلطة النص فى الثقافة العربية الإسلامية لايزال من الأنماط، ذات الوقع التأثيرى الكبير على جماهير الشارع العربى الإسلامى. وهذا ما أكدته تفاعلات أزمة الخليج، وكذلك عديد من تفاعلات الأزمة الثقافية المزمنة.. الأمر الذى يستلزم مزيداً من التأمل والتدبر لواقع إشكالى جم خطير.

حوارات، التبسيط الزائد لعلاقة السبب وأثره،

ويرتبط هذا النوع من الخلل فى إقامة الحجج ـ والذى أشرنا إليه بإيجاز سابقاً، عند تقديم العناصر العلمية للحجج بالجزء الأول من هذا الفصل ـ بمفهوم ذاتية المتحاور، الذى لايستحضر القدر الكافى من التجرد الموضوعى للحكم على الأمور بالقدر المطلوب من الدقة، بل يترك لحيز الذاتية الموجود بداخل كل منا المجال الأكبر لتفسير الحدث ولقد وقع عدد كبير من أعضاء النخبة العربية فى هذا المطلب، وهناك أمثلة كثيرة فى بنك البيانات الخاص بهذه الدراسة التى تسلط الضوء على هذا النمط. ومن الأمثلة الدالة مقال كتبه المفكر العربى د. محمد عابد الجابرى أثناء فترة الأزمة فى جريدة الاتحاد الاشتراكى المغربية بتاريخ ١٩٩١/١/٢٧ بعنوان «كلام.. الآن فقط أصبح له معنى..!» وفيما يلى تحليل لهذا المقال الذى سوف نتناوله من منظورين: الأول هو تحليل لمسار الموضوعات به لتحديد المقولة الرئيسية، والثانى هو توضيح لملامح الخلل فى إقامة الحجة به.

أولاً: تحليل الموضوعات بالمقال وتحديد المقولة الرئيسية (Claim):

يوضح الجدول التالى (رقم ٢) مسار موضوعات المقال:

الموضوع (١)	«مقدمة لتعريف التاريخ طبقاً لوجهة نظر الكاتب بهدف تقديم لحظة التفاعلات الحية فى أزمة الخليج»
الموضوع (٢)	«اللحظة التاريخية الحية لتفاعلات الأزمة قد بدأت فى ٢٥يونيو ١٩٩٠ أى قبل دخول القوات العراقية الكويت بخمسة أشهر، وهى ندوة أقيمت فى بغداد لإحياء ذكرى ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث الاشتراكى الحاكم فى العراق»
الموضوع (٣)	«موجز لخطبة مسئول عراقى فى الندوة وكلامه عن المشروع القومى العربى التحررى».
الموضوع (٤)	«نص كلام المسئول بخصوص: ـ العلاقة مع الغرب. وعلاقة العراق مع الدول العربية وعلاقة العرب الآخرين بالغرب. ـ تقييم لمرحلة ١٩٦٧. ـ ممارسات الغرب داخل المنطقة.
الموضوع (٥)	مضمون الحوار بين الحاضرين والمسئول العراقى: ـ «تذكر الكاتب لمقولتين عراقيتين الأولى أن العراق سيحرق نصف إسرائيل فى حالة أى اعتداء لها على المزدوج الكيميائي، والمقولة الثانية (أن فلسطين آتية إن شاء الله». ـ تناول قضية الديمقراطية.
الموضوع (٦)	تفسير الكاتب لحدث غزو العراق للكويت بناء على معطيات الموضوعات السابقة الذكر؛ خاصةً فى إطار تصريح المسئول العراقى وتصريح صدام فى ٢٥ يونيو. (إن فلسطين آتية إن شاء الله).
الموضوع (٧)	وهى آخر فقرة فى المقال نصها كالآتى: المقولة الرئيسية الآن، والآن فقط، بعد اندلاع الحرب أخذت أعطى لكلام المسئول العراقى كامل معناه.. لقد أصبحت أرى فيه الأن كلاماً جديداً مفتاحاً لإعادة كتابة تاريخ المسلسل، الذى أدى ما جرى ويجرى الآن(فلنرجع القهقرى) إذن. بعد أن وضعنا أرجلنا عل موقع يمكننا من قراءة الأمور الماضية والحوادث «الغابرة» قراءة أخرى.. تعطى معنى آخر لدخول القوات العراقية للكويت. إذ يبدو الآن أن العراق لم يدخل الكويت من أجل ثرواتها، بل من أجل تدشين العمل فى مشروع تحررى عربى.. جديد هو الذى شرحه المسئول العراقى.

ثانياً: ملامح الخلل فى إقامة الحجة

١ نمط «هذا الأمر ليس بالشرط نتيجة لذلك والتبسيط الزائد لعلاقة السبب وأثره»:

ويتجسد هذا النمط فى أن الكاتب قد ربط فى ادعائه دخول القوات العراقية للكويت بالآتى:

(أ) تدشين العمل فى مشروع تحررى عربى جديد.

(ب) مايفيد أن غزو الكويت خطوة لتحرير فلسطين.

وهنا نقول بأن هذا الأدعاء يفتقد إذاً لوجود عنصر الدحض المسبق، الذى تحدثنا عنه سابقاً Rebuttal ، والذى يتمثل فى الآتى:

إن الكاتب لم يتعرض فى مثل هذه القضية الجدلية إلى قضية غزو بلد عربى لبلد عربى آخر، وهو جوهر الأمر فى سياق الحديث عن المشاريع القومية العربية، واقتضب الأمر كله بالكلمات التالية:

إذ يبدو أن العراق لم يدخل الكويت من أجل ثروتها، بل من أجل تدشين العمل فى مشروع تحررى عربى جديد، هو الذى شرحه المسئول العراقى.

(جـ) تأطير الحديث:

نجد أن «نمط تأطير الحديث» فى شكل ما دون الآخر (النمط الثانى الذى تحدثنا عنه) فى الفصل الربع يتجسد فى أسلوب الجابرى، الذى قدم تفسير الأحداث من خلال سياق تاريخى طويل، كما يتضح ذلك من نص مقالته بملحق الدراسة، إلا أنه فى سرده للتاريخ قد تجاهل السؤال الخاص بمطامع العراق التاريخية لتكوين امبراطورية عراقية من ناحية، وهو ما أعلنه العراق صراحة من أن الكويت جزء منه «المحافظة رقم ١٩» فلماذا يكون المشروع «تحررياً عربياً» كما يقول الجابرى، ولايكون «توسعياً قطرياً!!» كذلك تجاهل الكاتب فى تفسيره لموضوع «فلسطين الآتية إن شاء الله» تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى القريب.. حيث إن هذا التاريخ القريب يثبت عدم جدية العراق فى التصدى لاسرائيل سوى بالعبارات والكلام الطنان فقط؛ فالواقع يقول بأنه عندما ضربت إسرائيل المفاعل النورى العراق بتحد سافر واستفزازى لم يتحرك للعراق حينذاك ساكن.. ألم يرى الكاتب لهذا الحديث هو الآخر «معنى»! إن هذه النقاط توضح أن الكاتب قد أسقط من عناصر حجته عنصر الاتساق والربط Warrant, وهو ماعرفناه على كونه رخصاً للقفزة العقلية (Mental leap) من الادعاء للبيانات أو العكس.

٢ ـ معقولية أو مصداقية من نستشهد بهم فى سياق حجة ما

من عناصر الخلل فى إقامة حجة أن يستشهد متحاور ما بمقولة شخصية غير ذات مصداقية للطرفين المتجادلين. وهذا ما فعله الكاتب، حين استشهد بمقولة «المسئول العراقى» كما ورد فى الإدعاء الرئيسى بالمقال.

كذلك من أمثلة تفاعلات الخليج التى أوضحت بما لايدع مجال للشك هيمنة نمط «التبسيط الزائد وأثره» «وأن هذا الأمر ليس شرطاً لذاك» ماذكره الملك حسين عن

أن موقف مصر من الأزمة كان من منطلق الانتقام من العراق لموقفها فى إخراج مصر من الجامعة العربية عقب اتفاقيات السلام. الأمر الذى إن دل، دل عن شئ فهو بل عن تجاهل ملك ميكانزمات فى غاية التعقيد ليس لها علاقة بمفهوم «الانتقام الضيق» ويكفى حجم الرسائل العلنية وغير العلنية للرئيس مبارك التى إذا ما قرأت الآن بموضوعية أوضحت أن مصر قد أرسلت كافة الرسائل الواضحة للغاية التى كانت تعكس حرصها الكبير والبين على احتواء الأزمة والحفاظ على قوة العراق لصالح الأمة العربية وكذلك تحرير الكويت. إن هناك رسالة بلغت ٥٦ صفحة بعث بها الرئيس مبارك للرئيس صدام ينبهه فيها إلى العوامل المعقدة التى تحيط بالموقف والتى كان ينبغى وأن يتعامل معها الرئيس العراقى بمسئولية وجدية ومنطق.

ويتمثل هذا الأمر فى أن تستند حجة متحاور ما على معنى واحد لمفهوم أو مصطلح قد يحمل استخدامه معنى مختلفاً بين أعضاء المجموعة الثقافية الواحدة أو من مجموعة ثقافية لأخرى وما أكثر الأمثلة التى تحدث فى تفاعلاتنا اليومية فى العالم العربى والتى توضح اختلاف معنى كلمة مابين الجماعات أو البلدان العربية.

كذلك هناك مفهوم معروف فى كل لغات العالم مفاده أن الكلمات القديمة تكتسب معانى مختلفة وجديدة فى أحيان كثيرة، فعلى صعيد التفاعلات فى المجتمع المصرى نجد كلمات «باشا» و«بيك» أو «أفندى» على سبيل المثال انت تعنى لقباً اجتماعياً له معناه المحدد قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٨٢ وأصبحت لاتعنى نفس الشئ عقب الثورة ثم اكتسبت معنى جدياً فى المجتمع يتسم أحياناً بالإفراط فى إطلاق هذه الألقاب فى التفاعلات الاجتماعية بهدف الاحترام المفرط للبعض، وأحياناً أخرى على سبيل التهكم ومن أشهر هذه المعانى التى استجدت على هذه الكلمات والتى تفيد التهكم ماذكره الرئيس السادات فى أحد أحاديثه حين كان يهاجم بعض الكتاب الذين كانوا ينتقدونه حين قال بعد أن أسماهم «بالأفنديات» إن البلد مش عايزة الأفنديات دول «وأنهم لايفقهوا شيئاً» إلخ، وأصبح تعبير «الأفنديات» منذ ذلك الحين يعنى نوعً من التهكم من البعض، وهناك عشرات من الأمثلة الأخرى. والمراد قوله هنا أن هناك بعض المفاهيم التى كان لها معنى فى اللغة القديمة، قد اصبح لها معنى آخر فى الاستخدام الحديث للغة، ومن هنا نسلط الضوء على كلمة «الصليبيين» العربية.. وإلى الآن لاتزال هذه الكلمة لها وقع الحملة الصليبية ولكن بقدر ضعيف، فالمعنى الآن فى مجتمع اللغة الإنجليزية وعلى وجه الخصوص فى المجتمع الأمريكى يعنى أى مهمة يقوم بها شخص ما، وليس الأمر الآن بمعنى «حملة صليبية» بدرجة المعنى القديم للكلمة. ففى المجتمع الأمريكى كنا نسمع مسيحى يقول لغير مسيحى "Good luck in your crusade"

• حوارات خلل الايحاءات الناتجة عن تجاهل ثنائية المعنى، "Equivocation" :

والترجمة هى «أتمنى لك حظاً موفقاً فيما تريد عمله» أو فى «حملتك» أو فى «مسعاك».. ومن هنا فإن بيان الأخوان المسلمين فى الأردن، عندما أخذ هذه الكلمة

التى وردت فى النيوزويك (بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٩٩٠) لوصف الحملة الأمريكية فى الخليج على كونها الدليل الدامغ على أن مايحدث فى الخليج، هو حرب صليبية بحتة من منطلق المعنى القديم لكلمة Crusade، يعتبر أمراً غير دقيق من وجهة نظر تجنب عوامل الخلل فى الحجج.. وهذا لايمنع أن يعتقد الأخوان بالأردن أو أى إنسان آخر أن أمر الحملات الصليبية لم ينته بعد. فهناك من الأدلة الواضحة الآخرى على أن هذه الحملات لم تنته ضد العرب والمسلمين، ويكفى ظهور جماعات المسيحيين الصهاينة التى تنادى إلى الآن بهدم المسجد الأقصى، وإقامة المعبد اليهودى. والأدلة على هذه المقولة معلنة وواضحة عند هؤلاء الصهاينة المسيحيين (انظر لمقال كاتب هذه السطور بخصوص هذا الأمر، فى سياق الحديث عن ديناميكيات الصراع العربى الإسرائيلى (حسن وجيه ١٩٨٧). ولكن ما أود أن أقوله أنه فى سياق إقامة الحجج ينبغى وأن يتسم الدليل بالدقة؛ حتى تكون الحجة سليمة دون خلل، وهذا نوع من الأمانة، فإذا كانت كلمة "Crusade"قد استخدمت لوصف الحملة الأمريكية بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٩٩٠ فإن ذات الكلمة نفسها قد استخدمت فى مجلة التايم التاريخ نفسه (٢٠ أغسطس ١٩٩٠) لوصف غزو العراق للكويت على كونه «حملة صدام»-Sad ams' Crusade (*)، وكذلك وصف صدام على انه Crusader(**) فهل نقول هنا إن المعنى هو أن صدام «صليبى»!! المعنى هو «أنه رجل ذو يقين ما «أو» قائد حملة يقينية ما».

والمثال التالى يوضح تحليلاً كاملاً لعناصر الحجة، مع تسليط الضوء على مصادر الخلل بها، وملامح لبعض خطايا الحوار التفاوضى التى تعرضنا لها.

إخوان الأردن

أصدر الأخوان المسلمون بالأردن بياناً ملتهباً، قالوا فيه لقد جاء يوم الحساب يابوش ويابيكر ويامیجور، وصنع الله لكم من أقداره أمة تمرست فى الحرب، ومهرت فى النزال وجاء يوم أعز فيه الله الإسلام، ورفع فيه راية التوحيد، وقد وشحها شعار «الله أكبر»..

وأكد البيان أن الأمريكان قد أعلنوا عن بداية الحرب الصليبية الثامنة، كما جاء فى النيوزويك قبل أسبوعين، وحشد الصليبيون واليهود جنودهم وبوارجهم، وجاءت جميع أجناسهم من ثمانى وعشرين دولة..

(*) نص الجمل كما ورد فى مجلة التايم الأمريكية

"Sadams' Crusade will not succed"(١)

(**) أى أن حملة صدام لن تنجح

U.S has the capcity to master the international effort to stop a vain a moral(٢) cursder like saldam

والمعنى هو إن للولايات المتحدة القدرة على أن تحشد الجهد الدولى المطلوب لوقف هذا / ذلك المحتال عديم الخلق «الصليبى»!! عند حده.

أولا : نص العينة :

وأشار بيان الأخوان المسلمين بالأردن، إلى أن الحرب لم تبدأ منذ الثانى من أغسطس الماضى، ولكنها بدأت منذ سنوات؛ للحيلولة دون إقامة النظام الإسلامى العالمى.

بدأت الحرب الصليبية الثامنة

وقال البيان: لقد تعرضت أمتنا لمظالم الأمم الغربية جميعها، وبيننا وبينها ثارات وثارات، وأنى لنا بالإحاطة بها وهى فى بلادها؟! فكان قدر الله أن يجعلها على صعيد واحد، على أرضنا المباركة الطهور «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين»..

ودعا البيان الشعوب العربية والإسلامية إلى المشاركة فى معركة المصير والتحرير، ونصرة أخوانهم فى العراق وفى فلسطين، حتى يأذن الله بنصره وتحرير الأرض المقدسة المباركة فى فلسطين وسائر بلاد المسلمين..

جريدة الشعب ٢٢ / ١ / ١٩٩١

ثانيا: تحليل عناصر الحجة الرئيسية بالعينة: انظر الشكل التالى (٢)

تحليل الحجة إلى عناصرها الأساسية والفرعية

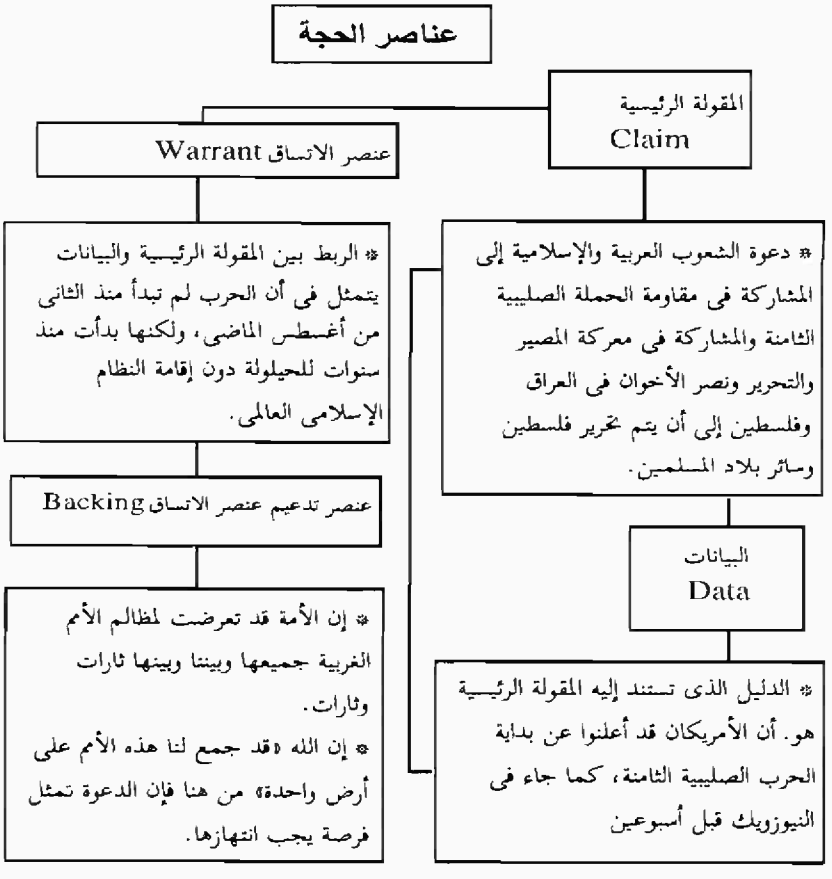

مصادر الخلل فى الحجة وملامح إشكاليات الحوار التفاوضى

مصادر الخلل فى الحجة وملامح إشكاليات الحوار التفاوضى العربى

(١) إن عنصر الدحض والتفنيد المسبق (Rebuttal) يفتقد إلى التعقل كصفة أسلامية أساسية، دعى الله المسلمين إليها بحيث أن عليهم أن يتوخوا الحذر عند الحديث عن معركة مقبلة لم تبدأ بعد.. «لقد جاء يوم الحساب بابوش وبابيكر وياميجور وصنع الله لكم من إقداره أمة تمرست فى الحرب ومهرت فى النزال.. وجاء يوم أعز فيه الله الإسلام..» (سلبية نمط «تضخم الإحساس بالذات» [النمط رقم (٢)]

(٢) اتسمت عناصر الحجة المختلفة بنمط التهييج والاسترسال العاطفى وإساءة استخدام سلطة النص، وذلك بالاستشهاد بنص من نصوص الجهاد دون الأخذ بأسبابه بحذر وتعقل ومقدرة. كذلك اتسمت المقولة بالتركيز على الموسيقى اللغوية فى بناء النص لإثارة مشاعر وعواطف الشارع العربى والإسلامى، وتعبئتها، دون إمعان النظر فى خطورة الموقف وحيثياته الدقيقة. وهذه الخصائص تضعف من معقولية وموضوعية مقدم الحجة (Qualifier).

(٣) خلل التبسيط الزائد بين السبب وأثره وتجاهل السؤال الرئيسى؛ حيث إن سبب الحرب ليس دينياً، وإنما هو احتلال العراق للكويت، الذى انتهزه بطبيعة الحال أعداء العرب والمسلمين للحصول على أقصى حد من هدم قوة العرب والمسلمين نظراً للريبة والشك التى ينظر بها الغرب للاسلام وللعرب والتى دعمتها تصرفات مثل ما أقدم عليه صدام العراق من مقولات تحدٍ جوفاء وعداء كلامى.

(٤) خلل الإيحاءات الناتجة عن تجاهل ثنائية المعنى Equivocation وهو ما قصدنا الحديث عنه، ويتمثل هنا فى الاعتماد على المعنى القديم لكلمة "Crusade"(الحملة الصليبية)، والذى ورد بالفعل استخدامه فى مجلة النيوزويك كدليل يدعم المقولة الرئسية دون الوعى ـ عمداً أو سهواً بمعنى الكملة الإنجليزية التى تعنى فى الوقت الراهن معنى «حملة» أو «مهنة» ـ لتحقيق هدف يقينى «والدليل على ذلك أن نفس الكلمة قد استخدمت لوصف عدوان صدام على الكويت»(Sadams Crusade) وكذلك وصفه بأنه "Crusader"

وفى ختام هذا القسم الذى أوردت من خلاله المفاهيم الرئيسية وعناصر عملية إقامة الحجج، وأوجه الخلل بها من خلال أمثلة من واحد من أهم وأخطر ملفات التفاعلات العربية العربية فى العصر الحديث.. أود أن أقدم تفصيلاً وأمثلة من واقع الحوار الاجتماعى والإدارى والسياسى لتلك المعادلة المهمة التى أشرح إليها وفى القسم الأول والخامس بمجرة المفاهيم ذات العلاقة الوثيقة بمفهوم «التسلط»، وهى ما أسميتها بالإنجليزية بمعادلة IpI والمعبرة عن مفاهيم الاستقلال والقوة / السلطة والاندماج (Indepdence -Power Auth ority - &Involv em ent)

وتكمن أهميتها فى أهمية ضبطها بدقة فى عملية التفاعل؛ بحيث يتمكن المتحاور فى أى سياق تفاعلى أن يمارس المسلطة أو القدرة المخول إليها دون تسلط وأن يندمج مع الآخرين، دون إهدار لمكانة أو التعرض لبلدوزرات الحوار الذين قد ينتهكوا عناصر رشيدة فى الحوار تتعلق بالخصوصية أو بالسيطرة على ساحة الحوار.. إنها معادلة مهمة نود أن نوضحها أكثر من خلال الأمثلة الحية.. وضبطها على النحو الأمثل يجسد أحد أهم المعادلات الحوارية، التى تنتمى إلى ثقافة التفاوض الإيجابى من ناحية، وتخطى ملمح سلبى من ملامح الخطاب التسلطى وهى كما يلى:

معادلة الاندماج والاستقلالية، والقوة فى عمليات التفاوض الاجتماعى والسياسى

هذه المفاهيم الثلاثة تحتاج إلى كتاب منفصل لتوضيح كل منها كمفاهيم متخصصة تدارسها خبراء علوم اللغويات الاجتماعية والعرقية والعلاقات الدولية، ونود أن نتناولها هنا بنوع من الإيجاز غير المخل إلاننا بحاجة إلى عملية ضبط مستمر لمعادلة هذه المفاهيم لما لها من أثر بالغ على عمليات التفاوض الاجتماعى والسياسى، ونوضحها أولا ببساطة فيما يلى:

أولاً:

مفهوم الاندماج "SoIidarity" و "Involvement"، وهو أهمية أن نحقق قدراً من الاندماج والتألف والتلطف مع طرف الحوار؛ بحيث تصل رسالة واضحة للآخر بأننا نرغب فى التعامل والتعاون معه والجلوس إليه، وهنا تثار أسئلة مثل إلى أى مدى وكيف ننجح فى تحقيق ذلك؟ وإلى أى مدى يؤثر ذلك على عملية التفاوض وطبيعة المفاوضين (داخل الثقافة الواحدة وعبر الثقافات؟!) وما هو مقبول ومؤثر، وما هو غير مقبول ومنفر؟

ثانياً:

مفهوم الاستقلالية (Independence)

من المهم أن توظف أدوات الاندماج مع الآخر والتلطف، ولكن بحيث لايؤثر ذلك على خصوصيتك واستقلالك كمفاوض.. أى أن نحقق ونرسى مبدأ مثل مبدأ الخلاف لايفسد للود قضية.. أى أن نختلف مثلاً دون حرق الجسور والوصول إلى حالة اللاتفاوض، بسبب أو لآخر، وما هو مقبول ومؤثر، وما هو غير مقبول ومنفر فى هذا الصدد أيضاً؟

ثالثاً:

مفهوم القوة أو القدرة

وهو أكثر المفاهيم تعقيداً وليس هناك أكثر من التعريفات، التى وردت عن هذا المفهوم؛ خاصة فى مجال العلوم السياسية والعلاقات الدولية، وهو الأمر الذى حدى بـ (Lasswell)عالم السياسة الشهير بأن يقول إننا حينما نتحدث عن علم السياسة إنما

نحن بصدد الحديث عن علم القوة أو القدرة (© POWER)[٣٩]. ولقد أوضح كاتب هذه الدراسة فى سياق آخر أن تعريف القدرة أو القوة من منظور سلوكى تمازجى يستمد مفاهيم من علوم اللغويات والعلوم السياسية والعلاقات الدولية، يمكننا من التعرف الدقيق لمهارات واستراتيجيات التفاوض والتساوم وتعقيداتها. إن الذى أريد أن أوضحه فى سياقنا هذا هو أن كلاً من مفهوم «الاندماج» «والاستقلال» فى الحوار الاجتماعى والإدارى والسياسى يرتبطان بصورة مركبة بمفهوم القوة أو القدرة، فعلاقة المفهومين بمفهوم القدرة تختلف إذا كان الحوار بين صديقين متكافئين، أو موقفين متكافئين ادبياً أو مادياً أو اجتماعيات وسياسياً، أو بين مرؤسين ورؤساء، وبين طالب وأستاذ وبين هيئه التحقيق القانونى ومتهم. وفى كل من هذه السياقات، هناك عديد من الأمثلة، التى ينبغى وأن نتعلم منها أن المفاوض الحريص والناجح، هو الذى يحسن صياغة هذه المعادلة بالدرجة التى تمكنه من تحقيق ناتج تفاوضى إيجابى، وألا يكون ضحية لميكانزمات هذه المفاهيم فى حوار تفاوضى وما، يتسبب فى مشاكل له أو فقدان الناتج الإيجابى من العمليه التفاوضية، دون داع. ولذلك سوف يتسع هذا الفصل لعدد من الأمثلة، التى تعبر عن مستويات متعددة توضح تأثير معادلة المفاهيم الثالثة على ناتج التفاوض، سواء كان اجتماعياً أو إدارياً أو سياسياً الأمثلة على النحو التالى:

المثال الأول: بين رفع الكلفة وإهدار المكانة!

ماذا يحدث لو أن أستاذاً بالجامعة من الاساتذة المحبوبين، أو مديراً ذا شعبية فى عمله، أراد أن يتلطف من باب «الاندماج والتوحد»، وأن يقوم بإزالة الحواجز والألقاب الرسمية بينه وبين معاونيه، ومن يعملون تحت رئاسته بأن يناديهم بأسمائهم أو حتى بالأسماء الأخرى لهم (ابراهيم ـ أبو خليل، حسن ـ أبو على ، مصطفى ـ درش) وعندما ينطق بهذا اللقب كنوع من التلطف يواجه بالشخص الآخر، الذى يريد أن يحقق ـ عن غير إدراك نوعاً من التلطف المقابل بأن يعامل أستاذه أو مديره الكبير بأن يناديه دون لقب دكتور أو فلان بك كما قد يتطلب سياق الإدارة أو الموقف.. ألا نجد هنا أن الاستاذ أو المدير عادة ما يقوم فوراً بتوظيف الأدوات الحوارية، التى تعكس على الفور مكانته الحقيقيه فى الحوار، والتى تعكس قدرات ومكامن القوة المتابينة بينه وبين الطرف الأقل فى المنصب أو فى السياق؛ حتى يضع الأمور فى نصابها الصحيح.

المثال الثانى: بين بلدوزر الحوار والغزو السافر للخصوصيات!

إذا كان هذا السياق السابق على مستوى الألقاب وتوظيفها، وهذا ماتم توضيحه فى الفصل الرابع عشر؛ خاصة فى مجال التفاعل السياسى، حيث أوردنا فى سياق آخر حيثيات الموقف التفاوضى بين طارق عزيز وجيمس بيكر.. فإن هناك مستوى أعمق يوضح لنا أهمية هذه المعادلة (أى معادلة الاندماج والتوحد، مع التأكيد على

الاستقلالية) وإظهار مكامن القوة فى الحوار الاجتماعى اليومى.. تصور مثلاً مكالمة تليفونية بينك وبين صديق أو قريب بدأ بالسؤال عن الصحة، ثم تطرق إلى إخبارك الشخصية، ووجدت الطرف الآخر يتخطى العموميات ويتوغل فى الأمور الشخصية، والتى تعتبرها تخصك أنت فقط، ولاتريد أن يتدخل أى إنسان فيها حتى لوكان صديقاً أو قريباً دون أن تطلب أنت منه ذلك.. هنا تجد أن دور الاندماج والتوحد والتلطف بدأ يساء استخدامه فى الحوار، وبدأت تشعر بأن هناك نوعاً من «الغزو» لخصوصيتك (أو استقلالك). فإذا كنت جريئاً.. ستوقف هذا الطرف بطريقة أو بأخرى؛ أى بأسلوب لبق وإذا لم يستجب فإنك قد توقفه بطريقة حاسمة... إذا كانت شخصيتك قوية، ولم تنفع معه الطريقة الحاسمة المهذبة.. فإنك قد تواجهه بطريقه فجة، ولكن الأمر يختلف من شخص إلى آخر، وهنا تجد كثيرين فى مجتمعنا العربى.. يجدون صعوبة بالغة فى إيقاف «بلدوزرات الحوار»، التى تسئ إلى مفهوم الاندماج والتوحد والتلطف، وتقوم بعملية غزو سافر لخصوصيات الآخرين، ومن هنا يستجيب الكثيرون لهذه «البلدوزرات»؛ إلى الحد الذى يؤدى إلى فقدان الاستقلالية والخصوصية «فتدهسهم» مثل تلك «البلدوزرات».. الأمر الذى يحاول معه الطرف المصاب بفقدان خصوصياته استرداد وضع الخصوصية والاستقلالية. ولكن ـ وفى أحوال كثيرة ـ يكون ذلك بعد فوات الأوان.. الأمر الذى يوتر العلاقة ويؤثر على أى عمليات تفاوضية تكون جارية.. ولذ فإن المفاوض الناجح والحذر يعمل من البداية فى أى سياق تفاوضى على ضبط معادلة الاندماج والاستقلال من بدايه التفاعل؛ فيوظف أدوات القوة المناسبة للحوار، التى يراها مناسبة لسياق التفاعل بالطبع، ولكن عليه أن يتبنأ أو يستشف بقدر الإمكان نجاح استريتجيات «الاندماج والتلطف»، وإلى أى مدى يوظفها، ومدى نجاح توظيف استراتيجيات «الاستقلالية وإظهار القوة (القدرة) سواء فى المركز الأدبى أو العمل أو خلافه «بطريقة لبقة....»

المثال الثالث: المعادلة فى حوار أستاذ جامعى ورئيس «جامعة المستقبل»!

الموضوع: أحد الأساتذة الجامعيين الميسورين يريد أن ينشىء جامعة أهلية، ويكون هو رئيساً لهذه الجامعة، وهو شخص يجيد مجاملة الآخرين، يستحضر أحد زملائه من الأساتذة المرموقين، الذين كان لهم تحفظ وعدم اهتمام كبير بالموضوع محل التفاوض ويدور بينهم الحوار التالى فى التليفون: مدير جامعة المستقبل: «أنا اشتريت قطعة ارض ودفعت فيها ملايين علشان» اتجنب أن إجيب رجال أعمال مثلاً تشارك فى التأسيس لأننى عايز الجامعة تكون كلها أساتذة فقط، وأنت عارف الأساتذة الجامعيين فى بلدنا

غلابة وليس لديهم إمكانيات مادية ولكن أنا أختار أفضل العناصر فى بلدنا من الأساتذة فقط، ولذا أرجو أن تضع برنامجاً كاملاً عن «موضوع تخصصك» حتى نقدمه ضمن متطلبات الحصول على إذن بإنشاء هذه الجامعة..

الأستاذ الجامعى:

طبعاً أنت عامل عقود للناس.. علشان يبقى الشغل على أصول؟!

مدير جامعة المستقبل: هو فيه بينى وبينك عقود

الأستاذ الجامعى: لابد أن تكون فيه شكل رسمى ليس معى على وجه الخصوص، ولكن مع الآخرين عندما نريد أن يكون هناك أسس للتعامل المباشر والواضح

مدير جامعة المستقبل: أنا منتظرك فى مكتبى (ويحدد موعداً) ويضيف «ودى آخر مرة اطلب منك الاشتراك معنا فى الشغلده»

الحوار بالمكتب:

الأستاذ الجامعى: إيه الحكايه كلها؟! مدير جامعه المستقبل «يقص الحكايه» مع إظهار مكامن القوة والاتصالات الكبيرة لديه ويطلب منه فى النهاية نفس الطلب... أى تعاون الأستاذ معه ولكن يقدم معه، نموذج مكتوب، ينص على وجود عدة اختيارات بخصوص التعاون فى انشاء مثل هذه الجامعة وهذا النموذج يشمل عدة أوجه للتعاون واحدها أن مايفعله سيتقاضى عليه أجر.. أو له أن يتبرع به أو بأى مبالغ أخرى للجامعة ويعتبر مساهماً فيها وله أن يؤجل مايستحقه حتى موعد افتتاح الجامعة، ويكون ذلك بمثابة بطاقة أولوية فى تعيينه أو اعطائه محاضرات تبلغ قيمة المحاضرة أضعاف ما يتيحه سوق العمل الراهن

الأستاذ الجامعى: يطلب إعطاءه قائمة بمحددات المطلوب منه لدراسة الأمر، ويقوم «طيب لوقمت بهدا العمل سوف يآخذ على الأقل من ثلاثة إلى أربع أسابيع»

رئيس جامعة المستقبل: لا... هذا كثير جداً

الأستاذ الجامعى: لكننى مشغول جداً.. عندى ندوة مهمة هذا الأسبوع بالإضافة إلى التزامات أخرى.

رئيس جامعة المستقبل: الغى هذه الندوة.. ده أنا بأشتغل ١٤ ساعة فى اليوم!

الأستاذ الجامعى: وأنا باشتغل عشرين!!

رئيس جامعة المستقبل: تيرة «هات ملف واستمارة» هنا، ويعطيهم للإستاذ وينتهى الحوار.

يبقى أن نقول إن ناتج الحوار التفاوضى الذى حدث هو أن رئيس جامعة المستقبل قد أخفق بالفعل فى إقناع ذلك الأستاذ الجامعى للعمل معه، لعدة أسباب منها مايتعلق اساساً «بمعادلة الاندماج والقوة»، وهى كالآتى:

لقد شعر هذا الأستاذ الجامعى بعد هذا الموقف التفاعلى أن استراتيجيات «الاندماج من قبل رئيس جامعة المستقبل» كانت غير موفقة لأنه لم يحسب أن الأستاذ الجامعى الذى زاره هو الآخر مشغول بأمور كثيرة.. وأنه يطلب منه إلغاء ارتباطات بجدوله الخاص؛ ليتسع لوقت جامعة المستقبل، بالإضافة إلى أن الأستاذ الجامعى كان قد قدم شبه اعتذار سابق عن العمل فى نفس ذات المشروع من قبل، وأن قول رئيس الجامعة له قد تجاوز للعشم إذا كان هذا وارداً، ويعتبر غزواً لاستقلالية الأستاذ الجامعى.. أضف إلى ذلك أن مدير جامعة المستقبل قد عبر ولو بصوره لاشعورية عن إظهار قوته واتصالاته ومكانته بصورة زائدة فى أكثر من سياق.. الأمر الذى لم يحقق أثراً إيجابياً فى انطباعات الأستاذ الجامعى، بل على العكس ترك انطباعاً سلبياً.. وهذا الناتج الكلى أشعر الأستاذ الجامعى بعدم الارتياح التام للعمل والتعاون الراهن، فماذا عن المستقبل، فلقد شعر الإستاذ أن رئيسه فى المستقبل لايضبط معادلة الاندماج والاستقلالية والقوة بالمستوى الأيجابى المطلوب، فأنهى عملية التفاوض من جانبه مع جواب اعتذار لطيف مع الملف، وأرسله لسكرتير رئيس جامعة المستقبل..

المثال الرابع: رؤية للمعادلة فى حوار الرجال والنساء!

الموضوع هنا هو عن طبيعة حوارات الرجال والنساء وسوء الفهم، الذى قد يحدث بسب فقدان ضبط معادلة «الاندماج والاسقلالية والقوة»، ولقد أفادتنا د/ Tannen فى كتابها المهم بعنوان:

«**ليس هذا ما أعنيه**»[٤٠] عن طبيعة مفهوم «القوة والتضامن» (أو الاندماج) (Power & SOLidarity) فى فصل كامل، ثم توسعت الكاتبة فيه فى كتاب اخر حديث «بعنوان هو وهى والحوار»[٤١] قال لقب أفضل الكتب المباعة فى الغرب عن هذا الموضوع[٤٢]، اشتمل هذا الكتاب على أمثلة ترتبط أساساً بالمرجعية الغربية، وعلى القارىء المهتم الرجوع إلى هذا الكتاب، ولكن لاشك أن هناك أشياءً مشتركة عبر الثقافات، كما يتضح ذلك من مقولة د / Tannen" بأن الحوار بين الرجل والمراة فى أى مجتمع قد يصبح فى أحيان أو لحظات معينة مثل الحوار عبر الثقافات، وأحياناً

يصل الأمر إلى مستوى «حوار الطرشان»، ولكن هذا الموضوع بحاجة مستفيضة للدراسة؛ خاصة إذا نظرنا إلى ساحة المستجدات فى تفاعلاتنا الثقافية؛ فلقد ظل الشائع دائماً ذهاب البعض إلى أن المرأة العربية الشرقية مكسورة الجناح مهضومة الحق مظلومة دائماً، وإذا نظرنا إلى صورة عناصر المعادلة المشار إليها آنفاً لقلنا إن الرجال قد أساءوا كثيراً فى عملية ضبط معايير هذه المعادلة بصورة عادلة فى حوارهم عن المرأة العربية، سواء كانت زوجة أو أخت أو زميلة فى العمل.. ولكن المراقب لتفعاعلات الساحة العربية الثقافية فى الوقت الراهن يجد مستجدات أخرى؛ حيث نجد كثيراً من النساء فى تفاعلاتهن يفتقدن إلى الحس السليم فى مراعاة عناصر المعادلة بصورة عادلة، بل تتسم تفاعلات البعض منهن بالتجاوز العكسى الشديد لعناصر هذه المعادلة.. ولعل الخبر التالى، والذى ظهر فى الصفحة الأولى بجريدة الأخبار القاهرية يوضح هذا الأمر:

مدرس ثانوى يخنق زوجته لأنها متسلطة!!

أنه وبالرغم من قسوة وقبح هذا الخبر، إلا أنه يدعوننا لتأمل مستجدات على الساحة.. بقول الخبر مدرس ثانوى يخنق زوجته لأنها متسلطة: «خنق مدرس ثانوى زوجته بسلك كهرباء أثنا نومها وسط اطفالها.. واعترف أمام النيابة بأنه قتلها لأنها امرأة متسلطة»(٤٣). إن هذا الخبر وما يتعلق بأشباهه أصبح كثير التردد، فهناك أخبار عديدة تطالعنا بها الصحف عمن «ذبحت زوجها ووضعته فى أكياس البلاستيك».. أليس فى هذه الأمثلة المستجدة على ساحة تفاعلاتنا الثقافية مايدعونا إلى تأمل عناصر معادلة «الاندماج والاستقلالية والقوة فى هذه السياقات المستجدة؛ خاصة تلك التى أوصلتنا بالفعل إلى حالات التناحر «واللاتفاوض» واستخدام السلاح الأبيض»!

المثال الخامس: السادات يحاول ضبط المعادلة!

الموضوع: محاولة الرئيس السابق السادات إعادة بناء الجسور مع المثقفين العرب والمصريين، كنوع من تدعيم شرعية حكمه خاصة بعد مبادرته للقدس وماتلاها من ردود أفعال فى ذلك الوقت.. وفى مسعاه هذا حاول على التأكيد على بعض منطلقات مثل هذا الحوار، الذى اراد أن يجريه مع واحد من هؤلاء المثقفين والذى ورد فيه شكاوه من المثقفين، من أنهم لايحسنون الحديث أو الحوار معه بالقدر الكافى من حيث عدم مراعاة ادأب مخاطبة الحاكم؛ فهو «رئيس الدولة أو كبير العائلة المصرية والعربية» ومما كان يعتب به خصوصاً على المثقفين المصريين أنهم لم يقرأوا القرآن الكريم جيداً.. وإلا وعوا أن الله سبحانه وتعالى بكل جلاله وعظمته كان يعمل حساباً خاصاً لحاكم مصر المهيب... أو مما كان يردده السادات دائماً أن الله سبحانه جل جلاله قد أرسل الأنبياء والرسل لشعوب وأقوام وقبائل حول مصر. ولكنه لم يرسل أيا منهم إلى شعوب عندما كان الأمر يخص إرسال أنبياء ورسل إلى مصر، ولذلك فإن الله حينما أرسل أحد

انبيائه، فقد كان ذلك لحاكم مصر وليس لشعبها، وحتى فى هذه الحالة النادرة فقد أعطى الله سبحانه وتعالى تعليمات واضحة صارمة لرسوله فى كيفيه التخاطب المهذب مع حاكم مصر وتمثل ذلك فى قوله تعالى لموسى عليه السلام «اذهب إلى فرعون أنه طغى وقل له قولاً لينا،» وكان الرئيس السادات يستغرب كيف تكون هذه التعليمات الإلهية إلى موسى، وهو من أقوى الانبياء، فى طريقة التخاطب والحوار مع «فرعون»، ثم ياتى المثقفون ويتحدثون معه أو عنه بلا تبجيل أو تهذيب، أو «قول لين»(٤٤)

إن ما أوردناه كان سياقه الخاص، ولكننا يمكننا أن ننظر إليه هنا فى إطار معادلة المفاهيم الثلاث وأهمية ضبط عناصرها (الاندماج والاستقلالية والقوة) فأى متحاور ذى سلطة ما، يريد أن يؤكد على صلاحياتها وهذا حقه، وهو قد يريد كذلك أن يندمج مع الأخرين دون أن تمس استقلاليته وصلاحيات سلطاته وقدراته أو قوته؛ فهى أهم عناصر مركزه التفاوضى. فما بالنا بسلطة كسلطة الحكم. إن أمر التفاوض الإيجابى يتحقق عادة إذا كان هناك احترام للسلطه عندما لايتجاوزها من يملكها ولايتعدى عليها من لايملكها فى حالة الحاكم والمحكوم والقاضى والمتهم، الطبيب مع المريض، والأستاذ مع الطالب، وإلخ. فمن الأمور التى تعتبر بمثابة نوع من الاشتباكات الخاطئة فى واقعنا هو تجاوز من له سلطات فى استخدامها فيكون مستبداً أو متسلطاً.. وأحيانا يكون هذا الطرف الذى لايملك السلطة دون وجه حق، أو عن إحساس وهمى وخلط بين ممارسة سلطة ما وأمر التجاوز والاستبداد فى استخدامها ولقد ثبت من خلال عديد من تفاعلات تحليل التفاوض فى مجال الإدارة مثلاً، والتى كان إحد اطرافها أحدى الشخصيات الإدارية والمستبدة المتسلطة، وكان الطرف الآخر فى موقع الأضعف، ومع ذلك نجح الموقف الاضعف فى تحقيق «أجندته»، عندما قرر ألا يصطدم بالسلطة الممنوحة لرئيسه «المدير العام»، أو محاولة عدم الاكتراث بها أو التركيز على الشخصانية فى التعامل، ولكن محاولاته ركزت على طرق موضوعية غير منفعلة ومشروعة فى الحوار، وطلب الالتماس، بعد رفض أحد طلباته بناء على قواعد القانون والإدارة السليمة، فى حين اختار البعض الأخر فى نفس الوضع منطق عدم الاكتراث بسلطة المدير ومحاولة النيل منها، فلم يفعلوا شيئاً سوى استنفار كل عنف واستبداد المدير المتسلط، فلم يحققوا شيئا سوى مزيد من التعسف والاستبداد من قبله، وظلت أجندتهم معلقة دون أن يتحقق أى شىء منها، وكانت الخسارة لهم فى المقام الأول بعد أن أسهموا فى الوصول بالموقف إلى حالة من حالات «اللاتفاوض»..